

---

**Chapter Title:** أحلام المتصوفة وأثرها على علم التعبير الإسلامي في القرن الرابع والخامس للهجرة

**Chapter Author(s):** Lina Jammal

**Book Title:** Mysticism and Ethics in Islam

**Book Editor(s):** Bilal Orfali, Atif Khalil, and Mohammed Rustom

**URL:** <https://www.aub.edu.lb/aubpress/Pages/Mysticism-and-Ethics-in-Islam.aspx>

---



This work by American University of Beirut is licensed under Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International. To view a copy of this license, visit <http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>

The opinions, findings, interpretations, and conclusions expressed in this book are entirely those of the authors and do not reflect those of the American University of Beirut, its affiliated organizations, or members of its Board of Trustees.

For requests and permissions, contact [aubpress@aub.edu.lb](mailto:aubpress@aub.edu.lb).

# أحلام المتصوّفة وأثرها على علم التعبير الإسلاميّ في القرنين الرابع والخامس للهجرة

لينا الجمال

ترجم حنين بن إسحاق (ت 260هـ/873م)<sup>1</sup> كتاب تعبير الرؤيا لأرطاميدورس الإفسسيّ (القرن الثاني للميلاد)<sup>2</sup> من اليونانية إلى العربية في القرن الثالث للهجرة. ويحيل معظم الباحثين إلى هذا الكتاب بصفته دليلاً على تأثر كتب تعبير الرؤيا الإسلامية بالفكر اليونانيّ.<sup>3</sup> ومما يرد فيه أنّ ثياب الصوف في غير الشتاء ليست دليل خير في المنام، وأنها رديئةٌ مطلقاً لمن كان عبداً أو أراد أن يتقدّم إلى القاضي بخصوصة، وذلك «لكثرة ثقلها وجفافها.»<sup>4</sup> أمّا الخرکوشيّ (ت 407هـ/1016م)<sup>5</sup> وهو المتصوّف الأوّل – على حدّ علمنا – الذي وضع كتاباً في تعبير الرؤيا فيقول: لبس الصوف في المنام للعلماء نسلٌ وزهد.<sup>6</sup> فكيف يمكن في ضوء ما سبق أن تُفهم منامات المتصوّفة بمنأى عن أخلاقهم؟ ولماذا الإشارة إلى المنامات وتعبيرها عند الحديث عن التصوّف والأخلاق؟

1. Gotthard Strohmaier, "Ḥunayn b. Iṣḥāq," in *EP*, online.

2. Maria Mavroudi, "Artemidorus of Ephesus," in *EP*, online.

3. للمزيد عن الكتاب وترجمته، راجع: توفيق فهد، الكهانة العربية قبل الإسلام، ترجمة حسن عودة ورندة بعث (بيروت: قدس، 2007)، 176؛ John Lamoreaux, *The Early Muslim Tradition of Dream Interpretation* (Albany: State University of New York Press, 2002), 47-51; Elizabeth Sirriyeh, *Dreams and Visions in the World of Islam: A History of Muslim Dreaming and Foreknowing* (London, New York: I. B. Tauris, 2015), 30-33; Christine Walde, "Dream Interpretation in a Prosperous Age? Artemidorus, the Greek Interpreter of Dreams," in *Dream Cultures: Explorations in the Comparative History of Dreaming*, ed. David Shulman and Guy G. Stroumsa (New York, Oxford: Oxford University Press, 1999), 121-142.

4. أرطاميدورس الإفسسيّ، كتاب تعبير الرؤيا، تحقيق توفيق فهد (دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، 1964)، 189.

5. A. J. Arberry, "al-Ḫargūshī," in *EP*, 4:1074.

6. أبو سعيد الخرکوشي، البشارة والفتنة في تعبير الرؤيا والمراقبة، مخطوط المتحف البريطاني، 259.

إنّ العلاقة التي تجمع التصوّف بالمنامات تحتلّ مكانةً مهمّةً في مسيرة كلّ من الشيخ ومريده.<sup>7</sup> وقد شكّلت المنامات وسطًا لانتقال المعارف في المذهب الصوفيّ وأدت أحيانًا وظيفيّة معرفيّة تواصلية<sup>8</sup> واكتسبت سلطةً توازي تلك التي تتمتّع بها النصوص في هذا المذهب،<sup>9</sup> فعدت بناءً ولبنةً في الوقت عينه: بناءً معقّدًا قائمٌ بذاته، ولبنةً في بناء التصوّف تساهم في تأطيره وفهمه.<sup>10</sup> ولذلك يُعدّ تأويل الرؤيا -في رأي شimmel (Schimmel)- من أهمّ واجبات مرشدي الصوفيّة قاطبة،<sup>11</sup> وتُعدّ كتب التعبير المفتاح أو الشيفرة لفهم الرسائل التي أراد الله أن يبلغها عبده في المنام.<sup>12</sup> تعرّف هذه الدراسة بالخركوشيّ بصفته متصوّفًا وضع كتابًا في التعبير، وتبيّن الانزياح الدلاليّ الذي طال رموز تعبير الرؤيا انطلاقًا من تصوّفه. ثمّ توظّف كتابه في تحليل منامات بعض المتصوّفة، محاولةً إدراك أثر الأخلاق على تلقّي المنامات وفهمها أولًا، وعلى علم التعبير ومصنّفاته ثانيًا.

## أولًا: الخركوشيّ وتجديده في علم التعبير

هو أبو سعد - أو أبو سعيد - عبد الملك بن محمّد بن إبراهيم النيسابوريّ، واعظٌ متصوّفٌ من فقهاء الشافعيّة. ولد في خرکوش وهي سكةٌ في نيسابور، ورحل إلى العراق والشام والحجاز ومصر وجالس العلماء. قدم بغداد حاجًا سنة 393هـ وحدث بها، ثمّ غادرها إلى مكة وأقام فيها حتّى سنة 396هـ. كان ثقةً صالحًا ورعًا زاهدًا حافظًا مفسّرًا. لقبه الذهبيّ بالإمام القدوة وشيخ الإسلام، وقال عنه الحاكم: «لم أر أجمع منه علمًا وزهدًا وتواضعًا وإرشادًا إلى الله». توفيّ في نيسابور سنة 407هـ وقيل 406هـ.<sup>13</sup>

أمّا مصنّفات الخركوشيّ، فمن المترجمين من لم يذكر منها شيئًا،<sup>14</sup> ومنهم من قال: له تفسيرٌ كبير، وكتاب دلائل النبوة [ويسمّى أيضًا شرف المصطفى]، وكتاب الزهد.<sup>15</sup> وزاد عليها بروكلمان تهذيب الأسرار في طبقات الخيار والبشارة والندارة في تعبير الرؤيا والمراقبة.<sup>16</sup>

والكتاب الأخير هو دليل تفسير للمنمات وليس مجموعةً من المنامات ككتاب ابن أبي الدنيا (ت 281هـ/894م)<sup>17</sup>. وما زال مخطوطًا ولم يحظ إلى الآن بتحقيق أمين، بل يُرجّح أنّه نُشر مرارًا باسم ابن سيرين لسببين بارزين: أولهما التشابه بين مضمون كتاب ابن سيرين ومخطوط البشارة والندارة، وثانيهما أنّ المقدّمة تعود إلى الخركوشيّ صراحةً «مقدّمة الأستاذ أبي سعيد الواعظ،» وأنّ عددًا كبيرًا من الأبواب يبدأ بذكره: «قال/يقول الأستاذ أبو سعيد الواعظ.»<sup>18</sup>

7. رَسَخَت هذه المكانة مجموعةً كبيرَةً من الأحاديث النبويّة، منها قول النبيّ: «الرؤيا الصادقة جزءٌ من سِتّة وأربعين جزءًا من النبوة.» وبنى أبو خلف الطبريّ (ت 412/1021م) على هذا الحديث ليقول إنّ المنامات أولى مراحل الوحي؛ راجع: Abū Khalaf Muhammad b. 'Abd al-Malik al-Tabarī (d. ca. 470/1077), *The Comfort of the Mystics: A Manual and Anthology of Early Sufism*, ed. Gerhard Böwring and Bilal Orfali (Boston, Leiden: Brill, 2013), 426.

8. Erik Ohlander, "Behind the Veil of the Unseen," in *Dreams and Visions in Islamic Societies*, ed. Özgen Felek and Alexander Knysh (Albany: SUNY Press, 2012), 201-203.

9. Nile Green, *Sufism: A Global History* (Malden, Oxford: Wiley-Blackwell, 2012), 77.

10. Ohlander, "Behind the Veil of the Unseen," 207.

11. آتَا ماري شimmel، أحلام الخليفة: الأحلام وتعبيرها في الثقافة الإسلاميّة، ترجمة حسام الدين جمال بدر وآخرين (كولونيا: منشورات الجمل، 2005)، 257.

12. Lamoreaux, *The Early Muslim Tradition of Dream Interpretation*, 84.

13. الخطيب البغداديّ، تاريخ بغداد، تحقيق بشار معروف (بيروت: دار الغرب الإسلاميّ، 2001)، 188/12؛ والذهبيّ، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985)، 257-256/17؛ والصفديّ، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركّي مصطفى (بيروت: دار إحياء التراث، 2000)، 133/19؛ والسبكيّ، طبقات الشافعيّة الكبرى، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلّو (القاهرة: هجر للطباعة والنشر، 1413هـ)، 223-222/5؛ وابن العماد الحنبليّ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر ومحمود الأرنؤوط (دمشق، بيروت: دار ابن كثير، 1989)، 48-47/5؛ وخير الدين الزركليّ، الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين، 2002)، 163/4؛ وعمر رضا كخالة، معجم المؤلفين (بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، دون تاريخ)، 188/6.

14. الخطيب البغداديّ، تاريخ بغداد، 188/21؛ والسبكيّ، طبقات الشافعيّة الكبرى، 223-222/5.

15. الذهبيّ، سير أعلام النبلاء، 256/17؛ والصفديّ، الوافي بالوفيات، 133/91؛ وابن العماد الحنبليّ، شذرات الذهب، 47/5.

16. كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربيّ (القاهرة: دار المعارف، 1959)، 85-84/4.

17. Leonard Librande, "Ibn Abi-Dunyah," in *EP3*, online.

18. أحصيت إلى الآن ستين دارًا عربيّة نشرت كتاب تفسير الأحلام لابن سيرين، وأتوقع أن يكون العدد الفعليّ أكبر من ذلك. وأعمل الآن على تحقيق هذا الكتاب مع الدكتور بلال الأرفه لي بالعودة إلى ثمانية مخطوطات. وفي ما يلي أسماء الدور التي تنشر الكتاب مصنّفًا وفق مدينة النشر: بيروت: دار الكتاب العربيّ، دار الفكر، المكتبة العصرية، دار المحجّة البيضاء، دار الرسول الأكرم، دار نوبليس، مؤسسة الكتب الثقافية، دار البلاغة، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، مكتبة الطلاب، مكتبة حسن العصرية، دار الشروق العربيّ، مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات، دار النهضة العربيّة، دار الكتب العلميّة، دار المناهل، دار الحكايات للطباعة والنشر، رشا برس، مكتبة التريّة، المكتبة الثقافية، دار العلوم العربيّة، دار الراتب الجامعيّة، دار الأرقم بن أبي الأرقم، دار اليوسف، مؤسسة المعارف: تونس: مطبعة المنار؛ الجزيرة: وكالة الصحافة العربيّة؛ دمشق: دار الرضوان، دار كرم، دار ابن كثير؛ الرياض: مركز التراث للبرمجيات؛ الشارقة: دار

وإنّ ما جاء به الخركوشي في كتاب *البشارة والندارة* قد يكون مبنياً على ما قاله سلفه ابن قتيبة (ت 276هـ/889م)<sup>19</sup> في كتاب *تعبير الرؤيا*، الذي يعود إلى القرن الثالث للهجرة وهو أقدم ما وصلنا في تعبیر الرؤيا عند المسلمين.<sup>20</sup> وقد يكرّر الخركوشي كذلك بعض ما جاء في *القادري في التعبير لمعاصره الدينوري* (ت بعد 400هـ/1010م)،<sup>21</sup> وهو مؤلّف ضخم وُضع للخليفة القادر بالله (ت 422هـ/1031م)،<sup>22</sup> ويجمع بين الثقافة اليونانية وثقافة الهند والفرس.<sup>23</sup> ولكن أثر التصوّف الذي ظهر جلياً عند الخركوشي قد يسمح باكتشاف جزءٍ من العلاقة التي تربط أخلاق المتصوّفة بمناماتهم.<sup>24</sup> ولعلّ استعراض مثالٍ واحدٍ يوضح ذلك أكثر.

يقول أرتاميدورس إنّ اللباس في المنام خيرٌ إذا كان في الزمان الموافق من السنة، ويستثنى من كان يريد أن يتقدّم إلى القاضي في خصومةٍ ومن كان عبداً، فثياب الصوف أو «المرعز الجدد»<sup>25</sup> — على حدّ تعبیر حنين بن إسحاق — لهم رديئةٌ ولو رأوا كأنهم لابسوها في الشتاء، «وذلك لكثرة ثقلها وجفافها».<sup>26</sup> أمّا الخركوشي فيقول: «احتراق الصوف فساد الدين وذهاب الأموال. ولبسه [يعني في المنام] للعلماء زهد».<sup>27</sup> ويُرَدّ هذا الانزياح الدلالي الذي طال رمزية الصوف إلى عاملين اثنين: أخلاق المتصوّفة، ووظيفة المنام في المذهب الصوفيّ.

## أ) أخلاق المتصوّفة:

ترتبط رمزية الصوف بالمتصوّفة في أكثر من ناحية، فلبس الصوف علمٌ من أعلام الزهد.<sup>28</sup> وتقول إحدى النظريّات إنّ المتصوّفة سُمّوا كذلك نسبةً إلى الصوف،<sup>29</sup> وذهب بعض الدارسين إلى أنّ الصوف كان لباس أهل الصفة، والملائكة أيضاً.<sup>30</sup> ومُنح لباس الصوف في المنام يدلّ على انتقال البركة من المانح إلى الممنوح.<sup>31</sup> تقول أمة العزيز وهي من المتصوّفات الأوائل: «من لبس الصوف يجب أن يكون أصفى الناس وقتاً، وأحسن الناس خُلُقاً، وأكرم الخلق حركة، وأعذب الناس طبيعاً، وأسأخهم يدّاً، كما تميّز عن الخلق بلباسه، كذلك يتميّز عنهم بأوصافه».<sup>32</sup> فالصوف إذًا مظهرٌ يعكس تخلّق النفس بأخلاقٍ كثيرة.<sup>33</sup>

الأسرة للإعلام، دار عالم الثقافة للنشر؛ طرابلس (لبنان): دار الشمال، المؤسسة الحديثة للكتاب؛ عتّان: دار الفكر، دار أعلام الثقافة، جمعية عمّال المطابع التعاونية، دار الحسن، دار البيت العتيق؛ القاهرة: دار الطلائع، دار الصفوة، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، دار الطباعة الحديثة، دار إحياء الكتب العربية، دار الحديث، مكتبة مصر لطباعة الأوفست، دار الفكر الإسلامي الحديث، المكتبة المحمودية، دار الغد الجديد، مكتبة مدبولي، هلا للنشر والتوزيع، مؤسسة طيبة للتوزيع والنشر، الدار الذهبية، دار الأمين، مكتبة الجمهورية العربية؛ المنصورة: مكتبة الإيمان.

19. G. Lecomte, "Ibn Kutayba," in *EP*, 3:844.

20. أمّم الخركوشي بالنقل عن ابن قتيبة: يقول إبراهيم صالح محقق كتاب الأخير: «نقل منه مباشرة أبو سعد الواعظ، بل نقل معظمه، في كتابه *البشارة والندارة* في تفسير الأحلام»، والأمر بحاجة إلى دراسة أعمق، راجع: ابن قتيبة، كتاب *تعبير الرؤيا*، تحقيق إبراهيم صالح (دمشق: دار البشار، 2001)، 10.

21. Bilal Orfali, "al-Dinawari, Abū Sa' d Naṣr b. Ya' qūb," in *EP*, online.

22. D. Sourdel, "al-Kādir Bi'llāh," in *EP*, 4:378.

23. أمّم الخركوشي أيضًا بالنقل عن الدينوريّ مع إسقاط الأسانيد، راجع: Lamoreaux, *The Early Muslim Tradition of Dream Interpretation*, 69.

24. لقد حصر لامورو (Lamoreaux) الأثر الصوفي في إيراد الخركوشي لبعض منامات المتصوّفة الأوائل، لكننا نرى أنّ الأثر أعمق من ذلك بكثير، وهذه الدراسة محاولة لإثبات ذلك، راجع: Lamoreaux, *The Early Muslim Tradition of Dream Interpretation*, 103-102.

25. «جعل سيويه المزعزعي صفةً، عنى به اللين من الصوف [...] وثوب مُفْرَعٌ: من باب مُفْرَعٌ وتمسك؛» محمّد بن مكرم بن منظور، *لسان العرب* (بيروت: دار صادر، دون تاريخ)، 354/5. ولعلّ المقصود بالجدد «الجداد» وهو الخلقان من الثياب؛ ابن منظور، *لسان العرب*، 114/3.

26. أرتاميدورس، كتاب *تعبير الرؤيا*، 189. وتجدر الإشارة إلى أنّ ارتداء الصوف كان شائعاً لدى النساك من المسيحيين قبل الإسلام ولكن لا يوجد في كتاب أرتاميدورس أدنى إشارة إلى ذلك، راجع: Alexander Knys, *Islamic Mysticism: A Short History* (Leiden, Boston, Köln: Brill, 2000)، 7.

27. الخركوشي، *البشارة والندارة*، مخطوط المتحف البريطاني، 130أ.

28. Abū l-Ḥasan al-Sirjānī, *Sufism, Black and White: A Critical Edition of Kitāb al-Bayāḍ wa-l-Sawād*, ed. Bilal Orfali and

Nada Saab (Leiden, Boston: Brill, 2012), 108.

29. راجع: Alexander Knys, *Islamic Mysticism*, 5; Ahmet Karamustafa, *Sufism: The Formative Period* (Berkeley, Los Angeles: University of California Press, 2007), 6; John Renard, *Historical Dictionary of Sufism* (Lanham: Scarecrow Press, 2005), 1.

30. Al-Sirjānī, *Sufism, Black and White*, 107.

31. شميل، *أحلام الخليفة*، 263.

32. Abū 'Abd al-Rahmān al-Sulamī, *Early Sufi Women: Dhikr an-niswa al-muta'abbidāt al-ṣūfiyyāt*, trans. Rkia Cornell (Louisville, KY: Fons Vitae, 1999), 223.

33. يُضَافُ إلى ذلك مجموعةٌ من الأحاديث التي تُنسب إلى النبي وترد في كتب للتصوّف، ومنها قوله: «عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الإيمان في قلوبكم، وعليكم بلباس الصوف تجدون قلة الأكل، وعليكم بلباس الصوف تعرفون به في الآخرة، فإن النظر في الصوف يورث في القلب التفكير، والتفكير يورث الحكمة...» راجع: Al-Sirjānī, *Sufism, Black and White*, 107.

## ب) وظيفة المنام في المذهب الصوفي:

المنام في الفكر الصوفي بمثابة مرآة يرى فيها الحالم ليلاً انعكاس أعماله في النهار، فيغدو وجهًا من أوجه محاسبة النفس وتأديبها،<sup>34</sup> وكثيرًا ما تتحقق توبة أحدهم بسبب رؤيا منام.<sup>35</sup> تقول شميل: المنام يعكس الحقيقة المطلقة على نحو الصورة التي تعكسها المرآة المظلمة.<sup>36</sup> والمنام في ذلك يؤدي وظيفة الشيخ، إن لم ينب عنه أحيانًا.<sup>37</sup> فالشيخ أيضًا يتحتم عليه أن يكون بالنسبة لمريده بمثابة مرآة، يحاسب نفسه من خلالها ويستحضر جمال الله.<sup>38</sup> وبذلك تكون وظيفة المنام قد تخطت حدود التكهن أو التنبؤ إلى وظائف أخرى،<sup>39</sup> فلم يعد المنام نافذة على المستقبل بقدر ما هو زاوٌ روحيٌّ أو محاسبةٌ أو تثبيت.<sup>40</sup> ويُضاف إلى هذين العاملين عاملٌ ثالث وهو منامات المتصوفة، أو ما يشكل التطبيق العملي للإطار النظري المنصوص عليه في كتاب الخركوشي أو غيره من كتب التعبير. ويخوض الجزء الثاني في هذا الجانب العملي من خلال تحليل منامات بعض المتصوفة.

## ثانيًا: منامات المتصوفة وصلتها بأخلاقهم

يرمي هذا الجزء إلى تحليل مناماتٍ ثلاثة، وإظهار أهميّة الأخلاق في تأويلها. وقد اختبرت هذه المنامات من كتابي *سلوة العارفين وأنس المشتاقين لأبي خلف الطبري* (ت 412هـ/1021م)<sup>41</sup>، و*الرسالة القشيرية* لأبي القاسم القشيري (ت 465هـ/1072م).<sup>42</sup> وقد تكرر بعض هذه المنامات في مصادر لاحقة للتصوف. وأعرض في دراستي لرموز التعبير ما جاء به أرتاميدورس في كتابه *تعبير الرؤيا* على ما جاء به الخركوشي في كتاب *البشارة والندارة في تعبیر الرؤيا والمراقبة*. وقد أفدت من مخطوطين للكتاب هما: مخطوط برلين ومخطوط المتحف البريطاني.<sup>43</sup>

## أ) المنام الأول: من وحي سيرة النبي

ورد المنام في الكتابين—*سلوة العارفين والرسالة القشيرية*— دون ذكر صاحبه، وفيه:

«حُكي عن بعضهم أنه قال: رأيت في المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله جماعة من الفقراء، فبينما هو كذلك إذ نزل من السماء ملكان، وبيد أحدهما طست، وبيد الآخر إبريق: فوضع الطست بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فغسل يده، ثم أمر الملكين حتى غسلوا أيديهم، ثم وضع الطست بين يدي، فقال أحدهما للآخر: لا تصب على يده فإنه ليس منهم، فقلت: يا رسول الله أليس قد روي عنك قلت: المرء مع من أحب؟ فقال: بلى، فقلت: وأنا أحبّك وأحبّ هؤلاء الفقراء، فقال صلى الله عليه وسلم: صبّ على يده، فإنه منهم.»<sup>44</sup>

34. تجدر الإشارة إلى أنّ كتاب تعبیر الرؤيا الذي وضعه شمس الدين الديلمي (ت 589هـ/1193م) كان بعنوان: مرآة الأرواح بصورة الوجاه.

35. شميل، *أحلام الخليفة*، 257.

36. شميل، *أحلام الخليفة*، 482.

37. ذهبت سارة سفيري (Sara Sviri) إلى أنّ المنامات قد تنوب عن دور الشيخ المري، وذلك ضمن تحليلها للمنمات الواردة في السيرة الذاتية للحكيم

الترمذي في كتابه *بدء الشأن*. وتجدر الإشارة إلى أنّ معظم تلك المنامات كانت لزوجته، راجع:

Sara Sviri, "Dreaming Analyzed and Recorded: Dreams in the World of Medieval Islam," in *Dream Cultures: Explorations in the Comparative History of Dreaming*, ed. David Shulman and Guy G. Stroumsa (New York, Oxford: Oxford University Press, 1999), 252-273.

38. شميل، *أحلام الخليفة*، 272؛ راجع أيضًا: Renard, *Historical Dictionary of Islam*, 205.

39. أحصيت إلى الآن تسع وظائف أوجدها التصوف لتعبير المنام غير التكهن بالمستقبل: ترسيخ شرعية شيخ معين أو طريقة ما، وإعلان ولاية أحدهم، وإعانة المريدي على اختيار شيخ له، وتوثيق صلة المريدي بشيخه، ومحاسبة النفس، وإحداث تحول جذري من الضلال إلى الهدى، والحث على الارتحال من مكان إلى آخر طلبًا للقاء شيخ، والتثبيت والإمداد بزواوٍ روحي، والكشف عن قبر أحد الأولياء.

40. للتوسع أكثر في هذه الفكرة، راجع: Jonathan Katz, "Dreams and Their Interpretation in Sufi Thought," in *Dreams and Visions in Islamic Societies*, ed. Özgen Felek and Alexander Knysch (Albany: SUNY Press, 2012), 184.

Gerhard Böwering and Bilal Orfali, Introduction to *The Comfort of the Mystics*, 1. 41

H. Halm, "Al-Kushayri," in *EI*, 5:526. 42

43. تفاصيل هذين المخطوطين في قائمة المصادر.

44. أبو القاسم القشيري، *الرسالة القشيرية*، تحقيق عبد الحلیم محمود ومحمود بن الشريف (القاهرة: مؤسسة دار الشعب، 1989)، 612؛ Al-Tabari, *The Comfort of the Mystics*, 431-432.

في مطلع المنام قرينة تحول دون تشكيك السامع أو القارئ في مضمونه، فرؤية النبي في المنام مقترنة بقوله: «من رأني في المنام لكَأَمَّا رَأَيْتَنِي فِي الْيَقْظَةِ لَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِئِي.»<sup>45</sup> ولذلك ترد رؤيا النبي مرارًا في سياق إثبات الشرعية لخليفة أو مذهب أو شيخ أو حتى قرار...<sup>46</sup> ولم يأت المنام على تحديد أي إطار مكاني أو زمني، ولكنّه عيّن الحضور بقوله: «وحوله جماعة من الفقراء.» فما دلالة الفقر في المنام؟ إن نظرنا في كتاب أرطاميدورس وجدنا ذكر الفقراء مرتبطًا لزومًا بالسؤال، ورؤيتهم في المنام — على حدّ قوله — «مضرةٌ كبيرةٌ وشدةٌ» وقد يدلّون على موت صاحب الرؤيا «لأنّهم يُشبهون بالموت، وذلك أنّهم وحدهم من الناس إذا أخذوا من الإنسان شيئًا لم يعطوه شيئًا، كما أنّ الموت يأخذ ولا يعطي.»<sup>47</sup> وبالانتقال إلى الخركوشي فقد أورد الفقر في باب واحدٍ مع التواضع بعنوان: «في رؤية التواضع والفقر وما أشبه ذلك»، الأمر الذي يؤكد ما جاء به بعض الدارسين أنّ إدراك خلقٍ معيّن من أخلاق المتصوفة لا يكتمل إلا من خلال الإحاطة بأخلاقٍ أخرى.<sup>48</sup> فالفقر مثلاً متصلٌ بأخلاقٍ أخرى كالزهد والتواضع والتوكل والرضا.. وفي ذلك يقول النصرايادي (ت 367هـ/978م): «ينبغي للفقير أن يكون مؤتزرًا بالقناعة مرتديًا بالعبقة.»<sup>49</sup> وفي تأويل الفقر يقول الخركوشي: «فمن رأى كأنّه فقير فإنّه يكثر عليه الطعام ويستبشر في أمره.»<sup>50</sup> لقد شكّل الفقر صفةً ملازمةً للصوفي الحقيقي فهو «من لا يملك شيئًا ولا يملكه شيء.» ومما يرد في الكتابين اللذين ذكرا المنام: الفقر شعار الأولياء وحلية الأصفياء واختيار الحق سبحانه لخواصّه من الأتقياء والأنبياء. والفقراء صفة الله عزّ وجلّ من عباده، ومواضع أسرارها بين خلقه، بهم يصون الحقّ الخلق، وبركاتهم يُبسط عليهم الرزق.<sup>51</sup>

وبالانتقال إلى قوله: «نزل من السماء ملكان، وبيد أحدهما طست، وبيد الآخر إبريق» فإنّ هذا المشهد يذكّرنا بمشهدٍ من السيرة النبوية وهو حادثة شقّ الصدر التي يقول فيها النبي: «بيننا أنا الساعة قائمٌ على إخوتي، إذ أتاني رهطٌ ثلاثة، بيد أحدهم إبريقٌ فضّة، وفي يد الثاني طستٌ من زُمُرَدٍ خضراءٍ ملؤها ثلج، فأخذوني، فانطلقوا بي إلى ذرّوة الجبل...»<sup>52</sup> إلى قوله: «فانتزع قلبي وشقّه، فأخرج منه نُكْتَةً سوداءً مملوءةً بالدم، فرمى بها، فقال: هذه حظُّ الشيطان منك يا حبيب الله.»<sup>53</sup> إنّ هذا التشابه بين أداتي نصّ المنام ومشهد شقّ الصدر يدفعنا إلى التساؤل عن العلاقة التي تجمع بينهما. فلعلّ الذين عُسلت أيديهم في المنام هم أولئك الذين ليس للشيطان منهم حظّ، أو أنّهم «وارثو النبوة» كما يعتقد المتصوفة استنادًا إلى قول النبي: «العلماء ورثة الأنبياء.»<sup>54</sup>

45. مسلم، صحيح مسلم (الرياض: دار طيبة، 2006)، 1077، حديث رقم 2266.

46. يقول خماش عن العقل الإسلامي: «لم تعد مسألة رؤيا النبي والسماع منه عبر تجربة منامية تحضر تجلياتها فجأة، دونما ترتيب مسبق بين عالمي الغيب والشهادة، تستجيب لظموحات وتطلعات هذا العقل المعرفية، فابتدع وسائل وطرائق تمكن من خلالها، وفقًا للعديد من الأدبيات الدينية، من استحضار الذات النبوية وقتما شاء، فيسأل عن مسائل محددة، فقهية أو عقائدية، أو في مجال التمييز بين الأحاديث النبوية وإسقاط بعضها، أو في مجالات النزاعات السياسية لتتنصر الذات النبوية لفئةٍ مقابل فئةٍ أخرى؛» نبال خماش، الأساطير والأحلام المؤسسة للعقل الإسلامي (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2013)، 371. ولمزيد من النقاش حول رؤيا النبي في المنام، راجع: فهد، الكهانة العربية، 205-206؛ Ignaz Goldziher, "The Appearance of the Prophet in Dreams," *The Journal of The Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland* 33 (1912): 503-506; Lamoreaux, "An Early Muslim Autobiographical Dream Narrative," in *Dreaming Across Boundaries: The Interpretation of Dreams in Islamic Lands*, ed. Louise Marlow (Cambridge, Massachusetts, and London: Harvard University Press, 2008), 90-91.

47. أرطاميدورس، كتاب تعبير الرؤيا، 417-418.

48. Karamustafa, *Sufism: The Formative Period*, 47; Knysh, *Islamic Mysticism*, 36.

49. Al-Sirjānī, *Sufism, Black and White*, 139.

50. الخركوشي، البشارة والنزارة، مخطوط برلين، 167ب.

51. الشيرازي، الرسالة القشيرية، 452:355؛ Al-Ṭabarī, *The Comfort of the Mystics*, 355:452.

52. أبو بكر البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة (بيروت: دار الكتب العلمية، 1984)، 140/1.

53. البيهقي، دلائل النبوة، 141/1.

54. أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذني، الجامع الكبير، تحقيق بقار عوّاد معروف (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990)، 608-609، حديث رقم 2682.

ولعلَّ حركة صبِّ الماء تحمل دلالةً أخرى أيضًا: فهل المقصود بها قبول انضمام الفرد إلى الجماعة؟ أم هل يكون الماء دليلًا على الرحمة أو المحبة أو المغفرة؟<sup>55</sup> لا يتحدّث أرتاميدورس عن غسل عضوٍ معيّنٍ وإنما يتحدّث عن الاغتسال عامّة، فهو للصحيح غنى، وللمريض صحّة، أما الفقير فإن رأى كأنّه يغتسل مع جماعةٍ يخدمونه دلّ ذلك على مرضٍ طويلٍ يعرض له لأنّ الفقير لا يغتسل مثل هذا الاغتسال إلا من مرض.<sup>56</sup> وفي المقلب الآخر، يقول الخرّكوشي: «ومن رأى أنّه اغتسل فإنّه يقضي حاجته، واللاغتسال تطهيرٌ من الذنوب وكشف الهموم.»<sup>57</sup> ولا حاجة للحديث عن الفرق الشاسع بين التأويلين.

ولم يكن صاحب المنام أهلاً للالتحاق بجماعة الفقراء لولا المحبة التي رفعته وأسعفته حتّى قال النبيّ: «صُبَّ على يده فإنّه منهم.» وقد توَسَّل ذلك من خلال حديثٍ نبويّ جاء ردًّا على رجل سأل النبيّ يومًا: يا رسول الله، الرجل يحبّ القوم ولا يبلغ عملهم؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «المَرءُ مع مَنْ أَحَبَّ.»<sup>58</sup> وللمحبة ثمنٌ عند أهل التصوّف، ولذلك قيل: «الحبّ معانقة الطاعة ومباينة المخالفة،» وقيل أيضًا: الحبّ محو المحبّ لصفاته وإثبات المحبوب بذاته...<sup>59</sup> فالمحبة إذا خلقت يستتبع التخلّق بأخلاقٍ كثيرة. وهكذا فإنّ منامًا واحدًا تداخلت في تحليله أخلاقٌ شتّى، الفقر وما يستوجبه من رضا وتوكل، والمحبة وما يستتبعها من التخلّق بأخلاق الله... الأمر الذي يجعل تأويل المنام ناقصًا وريما خاطئًا دون أخذ هذه الأخلاق بعين الاعتبار. وقد شكّل النظر في كتاب تعبير الرؤيا البشارة والنذارة وفي التناصّ مع الحديث النبويّ سياقين جديدين أغنيا عمليّة تلقّي المنام ومنحائها بعدًا جديدًا.

## ب) المنام الثاني: عند قبر النبيّ

هو لابن الجلاء<sup>60</sup>، وقد ورد في الكتابين أيضًا، وفيه:

«وقال ابن الجلاء: دخلتُ مدينة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبني فاقّة فتقدّمتُ إلى القبر وسلّمتُ على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعلى ضجيعيه، ثم قلت: يا رسول الله بي فاقّة وأنا ضيفك، ثم تحيّت ونمت بين القبر والمنبر، فإذا أنا بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم جاءني ودفع إليّ رغيف خبز، فأكلت نصفه، فانتبهتُ فإذا في يدي نصف رغيف.»<sup>61</sup>

بعكس المنام الأول، لقد افتتح المنام الثاني بتعيين إطارٍ مكانيّ، فابن الجلاء يزور قبر النبيّ في مدينته، ويغفو «بين القبر والمنبر.» وهذا المكان هو بوصف الحديث النبويّ روضةً من رياض الجنّة: «ما بين بيتي ومنبري روضةٌ من رياض الجنّة.»<sup>62</sup> ومعلومٌ أنّ الرؤيا الصادقة قد ارتبطت في الإسلام بإطارٍ زمنيّ لقول النبيّ «أصدق الرؤيا بالأسحار،»<sup>63</sup> ولكن لا حديث يشير إلى إطارٍ مكانيّ، فالرائي إن بات في المسجد أو في داره أو في الطريق سواء،<sup>64</sup> الأمر الذي اختلف عند أهل التصوّف حيث أصبح أداء صلاة الاستخارة في مقام بعض الأولياء أمرًا شائعًا، اعتقادًا بأنّ المنام يصدق في تلك الأماكن أكثر.<sup>65</sup>

55. تجدر الإشارة إلى أنّ الماء في منام أبي العباس بن مسروق يرمز إلى خلقٍ آخر وهو الحياء، ونصّه: «قال أبو العباس بن مسروق: دخلت على سريّ وبين يديه ماءٌ محتججٌ وفي يده قضيبٌ يقبّ به ذلك الماء، فقال: يا بديخت، هذا رجلٌ كان عندي اليوم، فتكلمت عليه في شيء من علم الحياء فذاب حتّى صار كما ترى.» وقال غيره: «راه في النوم وهذا هو الصحيح؛» Al-Sirjānī, *Sufism, Black and White*, 382.

56. أرتاميدورس، كتاب تعبير الرؤيا، 128.

57. الخرّكوشي، البشارة والنذارة، مخطوط المتحف البريطاني، 33ب.

58. ابن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرين (بيروت: مؤسسة الرسالة، 2001)، 329/21، حديث رقم 13828.

59. القشيري، الرسالة القشيرية، 521.

60. هو أبو عبد الله أحمد بن يحيى، من كبار مشايخ الصوفيّة، انتقل من بغداد فسكن الشام. يقول إسماعيل بن نُجيد: «إنّ في الدنيا ثلاثة من أئمة الصوفيّة لا رابع لهم: أبو عثمان بنيسابور، والجنيد ببغداد، وأبو عبد الله الجلاء بالشام.» راجع: السلميّ، تاريخ الصوفيّة. وبذيله محن الصوفيّة، تحقيق محمّد الجادر (دمشق: دار نبويّ، 2015)، 77-79.

61. القشيري، الرسالة القشيرية، 610؛ Al-Sirjānī, *Sufism, Black and White*, 156؛ Al-Ṭabarī, *The Comfort of the Mystics*, 429.

62. البخاريّ، صحيح البخاريّ (دمشق: دار ابن كثير، 2002)، 288، حديث رقم 1196.

63. ابن حنبل، المسند، 341/17، حديث رقم 11240.

64. لم يطرح هذا الموضوع من قبل على الرغم من الأهميّة التي يتبوّأها «المكان» في الفكرين العربيّ والإسلاميّ، ولذلك أوليه العناية في أطروحتي التي تدرس علاقة المنام بالمكان في العصر العباسيّ.

65. Sirriyeh, *Dreams and Visions in the World of Islam*, 169, 172.

فكيف بقبر النبيّ تحديداً؟ وإنّ المكانة الخاصّة التي تحظى بها القبور عند أصحاب هذا المذهب قد دفعت نايل غرين (Nile Green) إلى الاعتقاد بأنّ علاقة المتصوفة بدينهم تبلورت في أمرين: السنة مشايخ التصوف، وقبورهم.<sup>66</sup>

أين الأخلاق من هذا كله؟ تحيلنا زيارة القبور وملازمتها إلى حُلقُ الزهد، لما فيهما من عزوفٍ عن الدنيا واستصغارٍ لها واستحضارٍ للآخرة من خلال ذكر الموت.<sup>67</sup> ومن القصص ما يخبر عن رجال بنوا لأنفسهم قبوراً ولازموها سنين وتقلّدوا أحياناً بأكفانهم.

ويشكو ابن الجلاء للنبيّ ما كان معروفاً عنه من صفته وحاله في بيوت زوجاته. فقد «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلّم من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير.»<sup>68</sup> وكذلك كان حال ضجيعيه أبي بكر وعمر، ومما يُروى في هذا الصدد أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم خرج في ساعَةٍ لم يكن يخرج فيها ثم خرج أبو بكر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم: ما أخرجك يا أبا بكر، فقال أخرجني الجوع، قال: وأنا أخرجني الذي أخرجك، ثم خرج عمر، فقال: ما أخرجك يا عمر؟ قال: أخرجني والذي بعثك بالحقّ الجوع... إلى آخر الحديث.<sup>69</sup>

لقد ورد منام ابن الجلاء في *سلوة العارفين والرسالة القشيرية* ضمن بابٍ بعنوان: «رؤيا القوم»، أمّا السيرجانيّ (ت نحو 470هـ/1077م) فقد ذكر المنام نفسه في كتاب *البياض والسواد* ضمن باب: «قولهم في الأكل وعادتهم فيه»، وهو في هذا الباب يزكي فضيلة الجوع، ويحكي عن متصوفة مكثوا سنين لم يأكلوا الخبز.<sup>70</sup> فالجوع أحد أركان المجاهدة، وإنّ أرباب السلوك وجدوا ينابيع الحكمة من خلاله.<sup>71</sup> يقول يحيى بن معاذ: «الجوع للمريدين رياضة، وللتائبين تجربة، وللزهاد سياسة، وللعارفين مكرمة.»<sup>72</sup> ويُعدّ الجوع أفضل طريقٍ للوصول، وشرطاً أساساً للكشف الإلهي.<sup>73</sup> وهنا شكّل الجوع باباً للوصال النبويّ. كلّ ذلك يخولنا أكثر فهم قوله: «يا رسول الله بي فاقّة وأنا ضيفك»، وإكرام الضيف واجبٌ كما هو معلوم.<sup>74</sup>

لقد رأى ابن الجلاء النبيّ يدفع إليه رغيف خبز، فأكل نصفه، فلما انتبه وجد في يده النصف الثاني. فما دلالة الخبز في المنام؟ ميّز أرتاميدورس بين أنواع للخبز وقال: إذا رأى الأغنياء أنّهم يأكلون خبز الفقراء (الخشكار) دلّ ذلك على فقر، وإذا رأى الفقراء أنّهم يأكلون خبز الأغنياء (الحوّارى) دلّ ذلك على مرض.<sup>75</sup> وفي المقابل يقول الخركوشي: «إنّ الخبز الحوّارى الحارّ يدلّ على ولد، والخشكار يدلّ على حياة هنيئة ودينٍ واسط.»<sup>76</sup>

66. Green, *Sufism: A Global History*, 113.

ولقد ساهم التصوف في إيجاد علاقة متشابهة بين القبر والمنام، فأضرحة الأولياء من الأماكن التي تظلمها البركات، ورؤيتها في المنام تشغل حيناً مهماً في الفكر الصوفيّ. كما عُرض على بعض الأولياء أحياناً في المنام قبورهم التي سوف يُدفنون فيها. أضيف إلى ذلك نيمة ظهور وليّ في المنام ليعرّف شخصاً ما بموضع قبره وأمره أن يبنى له ضريحاً؛ شميل، *أحلام الخليفة*، 312-313؛ وقد تناولت غير دراسة الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية للقبور عند المتصوفة؛ راجع: Sirriyeh, *Dreams and Visions in the World of Islam*, 163-172; Iftikhar Charan et al., "Cultural and Religious Perspective on the Sufi Shrines," *Journal of Religion and Health* 57 (2018): 1074-1094; Ato Kwamena Onoma, "The Grave Preferences of Mourides in Senegal: Migration, Belonging, and Rootedness," *Africa Spectrum* 53, no. 3 (2018): 65-88. ومن الجدير بالذكر أنّ عليّ الوردي تناول «ظاهرة الأضرحة الوهميّة» التي عدت وسيلةً للكسب منذ العصر العباسيّ، راجع: عليّ الوردي، *الأحلام بين العلم والعقيدة* (بيروت: الوزاق، 2017)، 15-19.

67. تُردّ بدايات التصوف إلى أحوالي من الزهد ظهرت في نهاية القرن الهجريّ الثاني؛ راجع: Karamustafa, *Sufism: The Formative Period*, 1.

68. البخاريّ، الصحيح، 1379، حديث رقم 5414.

69. ابن حنّان، صحيح ابن حنّان بترتيب ابن لبّان، تحقيق شعيب الأرنؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1993)، 16/12، حديث رقم 5216.

70. Al-Sirjānī, *Sufism, Black and White*, 153.

71. القشيريّ، الرسالة القشيرية، 258.

72. القشيريّ، الرسالة القشيرية، 259.

73. آغا ماري شميل، الأبعاد الصوفيّة في الإسلام، ترجمة محمّد السيد ورّضا قطب (كولونيا، بغداد: منشورات الجمل، 2006)، 133.

74. وذلك استناداً إلى أحاديث كثيرة منها قوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرِمْ ضَيْفَهُ؛» انظر: البخاريّ، الصحيح، 1509، حديث رقم 6018.

75. أرتاميدورس، كتاب تعبير الرؤيا، 139.

76. الخركوشي، البشارة والنفارة، مخطوط المتحف البريطاني، 113أ.



ويندرج هذا المنام ضمن مجموعةٍ من المنامات التي تخلف أثراً مادياً ملموساً، وتشمل المنامات المعالجة من الأمراض أو العاهات التي كانت محطَّ عنايةٍ في التراث الإسلامي، الأمر الذي يرسخ اعتقاد كثيرٍ من المسلمين بالارتباط التام بين عالمي الواقع والنام، «فلا وجود عندهم لحدودٍ فاصلةٍ بين هذين العالمين.»<sup>77</sup> والنام عادةً يصعب الإتيان بدليلٍ على صحته كونه تجربةً فرديةً خاصةً، لكنَّ هذا النوع من المنامات يشدُّ عن القاعدة. وابن الجلاء بقوله ذلك قد جاء بقرينتي إثبات: رؤيا النبي من جهة والنصف الثاني للرغيف من جهةٍ أخرى.

إنَّ أثر التصوف واضحٌ في كلامه، وإنَّ أخلاق المتصوفة - المنعكسة في مناماتهم - قد حققت انزياحاً دلاليّاً واضحاً لرمزية الخبز عند الخركوشي. وأدت الأخلاق مع الأحاديث النبوية مع كتاب الخركوشي في التعبير دوراً تكامليّاً في عملية تأويل المنام.

### ج) المنام الثالث: وصية ابن لأبيه

ورد المنام الثالث والأخير في الرسالة القشيرية، ونصّه:

«كان لأبي سعيد الخزاز<sup>78</sup> ابنٌ مات قبله، فرآه في المنام فقال له: يا بُني، أوصني. فقال: يا أبت لا تعامل الله على الجبن. فقال: يا بني، زدني. فقال: لا تخالف الله تعالى فيما يطالبك به. فقال: زدني. فقال: لا تجعل بينك وبين الله قميصاً. قال: فما لبس القميص ثلاثين سنة.»<sup>79</sup>

لعلَّ هذا المنام لم يشتمل على رؤيا النبي كالمنامين السابقين، ولكن للوهلة الأولى تبدو بنية المنام متطابقةً مع بنية عددٍ من الأحاديث النبوية التي تبدأ بقول أحدهم: يا رسول الله أوصني، فيجيب النبي، ثمَّ يردف السائل: زدني... وهكذا تتعدّد الإجابة ويتكرّر طلب الزيادة وتصبّ هذه الأحاديث بمعظمها في المجال الأخلاقي. ومن هذه الأحاديث ما ورد عن أبي ذر: قلتُ يا رسول الله أوصني قال: أوصيك بتقوى الله فإنه رأسُ الأمر كلّه، قلتُ: يا رسول الله زدني قال: عليك بتلاوة القرآن وذكر الله فإنه نورٌ لك في الأرض وذُخْرٌ لك في السماء، قلتُ: يا رسول الله زدني: قال: إياك وكثرة الضحك فإنه يُميت القلب ويذهبُ بنور الوجه... والحديث طويلٌ وفيه وصيةٌ بالصمت: «عليك بالصمت إلا من خير»، وأمرٌ بالرضا: «انظرْ إلى مَنْ تحتك ولا تنظرْ إلى مَنْ فوقك فإنه أجدرُّ ألا تردري نعمة الله عندك» وغير ذلك... ومما يرد فيه: «أحبَّ المساكينَ وجالسهم.»<sup>80</sup> وفي هذا عودٌ أول على الحبِّ، وعودٌ ثانٍ على الفقر، وعودٌ ثالثٌ على التواضع والزهد، الأمر الذي يؤكّد صعوبة تفسير منام أحد المتصوفة خارج منظومة أخلاقية مترابطة.

لقد كانت علاقة المنامات السابقة بالحديث النبوي واضحة، ولكنَّ هذا المنام يُظهر أيضاً ارتباطاً بالقرآن الكريم. فالوصية مرتبطةٌ في التراث بالأخلاق، وكذلك كانت وصية لقمان لابنه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾<sup>81</sup> واشتملت وصاياه إلى جانب التوحيد وإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على جوانب أخلاقية، منها الصبر: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾<sup>82</sup> والتواضع: ﴿وَلَا تَصَعَّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾<sup>83</sup> وخفض الصوت: ﴿وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾<sup>84</sup> ولا تخرج وصية ابن الخزاز عن السياق الأخلاقي أيضاً، ولكن مع قلبٍ واضح في الأدوار فالابن في المنام هو الذي يوصي أباه

77. شميل، أحلام الخليفة، 489.

78. هو أحمد بن عيسى، من كبار المشايخ المذكورين بالورع والمراقبة وحسن الرعاية والمجاهدة، ولقبه ابن الطرسوسي بقمر الصوفية. مات سنة 247 هـ أو 277 هـ؛ انظر: السلميّ، تاريخ الصوفية، 50-55.

79. القشيري، الرسالة القشيرية، 615.

80. ابن حنّان، الصحيح، 76/2، حديث رقم 361.

81. القرآن 31:13.

82. القرآن 31:17.

83. القرآن 31:18.

84. القرآن 31:19.

بعد أن فارق الحياة قبله، فيقول له: «لا تعامل الله على الجبن» أي قلة الشجاعة من الفتور والكسل في الطاعات،<sup>85</sup> و«لا تخالف الله تعالى فيما يطالبك به» و«لا تجعل بينك وبين الله قميصاً». فالتركيز على الجانب الأخلاقي يكمن في الوصية الثالثة، ويلي تفصيلاً في الحديث عنها.

إن الحوار القائم بين الأب وابنه في المنام يُفتح بقول الأب «يا بني»، ومن ثمَّ يجيب الابن: «يا أبت». ويتشابه هذا الحوار مع حوار قرآني بين النبي إبراهيم وابنه إذ قال له: ﴿يَا بَنِيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾<sup>86</sup> فأجاب الابن: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ﴾<sup>87</sup>. إنه المنام من جديد، وليس أي منام، إذ إنه أسس للنظرة الصوفية تجاه المنامات، فقد قلب ابن العربي في كتابه *فصوص الحكم*<sup>88</sup> التفسير المتعارف عليه لهذا المنام، وقال إن المقصود في المنام هو الكبش وقد ظهر بصورة ابن إبراهيم، «فقداه ربّه من وهم إبراهيم بالذبح». <sup>89</sup> ويرى ابن العربي أن تعبير الرؤيا لا يأخذ بظاهرها، «فالتجلي الصوري في حضرة الخيال محتاج إلى علم آخر يُدرك به ما أراد الله تعالى بتلك الصورة». <sup>90</sup> وكان الواجب اجتياز الصورة التي رآها إلى أمرٍ آخر. وهكذا يظهر القلب على مستوى آخر في نص هذا المنام.

وأعود إلى قوله «يا أبت»، فهو أيضاً نداءً جاء على لسان يوسف عندما قال لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾<sup>91</sup> وقال ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾<sup>92</sup> إنه المنام مجدداً، وإنه كذلك النبي الذي كان تعبير الرؤيا معجزته التي أوتيتها، وهو تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾<sup>93</sup> فالتفسير الأرحج ل «تأويل الأحاديث» هو تعبير الرؤيا،<sup>94</sup> وقد نصت الآية السابقة على ارتباطه بالاجتباء.<sup>95</sup>

ولا يمكننا إلا الوقوف عند هذا النبي لأن القميص ارتبط به في السياق القرآني وكذلك في نص المنام. وقد تأثرت كتب التعبير الإسلامية بالسياق القرآني، إذ يقول الخرکوشي: القميص بشارة لقوله تعالى: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾<sup>96</sup> ونقرأ مثلاً عن أبي إسحاق الكرماني – وهو أول من وضع كتاباً في التعبير عند المسلمين ولكنه لم يصلنا<sup>97</sup> – «أنه رأى يوسف الصديق عليه السلام في المنام فأعطاه قميصه فلبسه وجلس به، فتعلم ما فتح الله به عليه من تعبير الرؤيا». <sup>98</sup>

أما في سياق الحديث النبوي، فيطالعنا مناماً رآه النبي وفيه: «بيننا أنا نائم، رأيت الناس يُعرضون عليّ وعليهم قمصٌ منها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ دون ذلك. ومَرَّ عليّ عمر بن الخطاب وعليه قميصٌ بجره. قالوا: فما أولت ذلك يا رسول الله؟ قال: الدين». <sup>99</sup>

85. مصطفى العروسي، نتائج الأفكار القدسية في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية لشيخ الإسلام زكريا بن محمد الأنصاري (ت 926هـ) (بيروت: دار الكتب العلمية، 2007)، 345.

86. القرآن: 37: 102.

87. القرآن: 37: 102.

88. مما يستحق الذكر أن ابن عربي قد وضع كتابه هذا بعد أن رأى في المنام أن النبي يعطيه إياه ويقول له: «خذ واخرج به إلى الناس ينتفعون»؛ محيي الدين ابن عربي، *فصوص الحكم*، تحقيق أبو العلا عفيفي (بيروت: دار الكتاب العربي، دون تاريخ)، 47.

89. ابن العربي، *فصوص الحكم*، 85.

90. ابن العربي، *فصوص الحكم*، 85.

91. القرآن: 12: 4.

92. القرآن: 12: 100.

93. القرآن: 12: 6.

94. أبو جعفر الطبري، *جامع البيان في تأويل القرآن*، تحقيق أحمد شاکر (بيروت: مؤسسة الرسالة، 2000)، 560/15؛ وأبو إسحاق الزجاج، *معاني القرآن وإعرابه*، تحقيق عبد الجليل شلي (بيروت: عالم الكتب، 1988)، 92/3؛ وأبو الفرج بن الجوزي، *زاد المسير في علم التفسير* (بيروت: دار الكتاب العربي، 2002)، 414/2؛ وأبو القاسم الزمخشري، *الكشاف عن حقائق التنزيل وعلومها* (بيروت: دار المعرفة، 2009)، 505؛ وأبو سعيد البضاوي، *أنوار التنزيل وأسرار التأويل*، تحقيق محمد المرعشلي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1998)، 155/3.

95. بشير كنيش (Knysh) مرآة في حديثه عن تفاسير المتصوفين الأوائل إلى تعويلهم على الرؤى والمنامات عند التأويل؛

Alexander Knysh, *Sufism: A New History of Islamic Mysticism* (Princeton: Princeton University Press, 2017), 67-84.

96. القرآن: 12: 93.

97. نرجح استناداً إلى من نقل عنه أن كتاب أبي إسحاق الكرماني هو أول ما وضع في تعبير الرؤيا عند المسلمين، وذلك في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، ثم توالت من بعده التأليف؛ انظر: Lamoreaux, *The Early Muslim Tradition of Dream Interpretation*, 26.

98. خليل بن شاهين، *الإشارات في علم العبارات* (بيروت: دار الفكر، دون تاريخ)، 759.

99. البخاري، *الصحیح*، 16، حديث رقم 23.

وكلّ ما سبق لا ينطبق على تأويل منام الخراز، فلا القميص فيه هو بشاره، ولا هو الدين، ولا هو القدرة على التعبير. والقلب يظهر هنا على مستوى ثالث، فقد شكّل النظر في كلّ من كتاب الخركوشي وفي التناصّ مع القرآن والحديث النبويّ قاعدةً أساساً في فهم المنامين السابقين، وبعدها مكتملاً للبعد الأخلاقيّ. أمّا في هذا المنام فقد قصّر كتاب الخركوشي في عكس رمزيّة القميص عند المتصوّفة، وكذلك لم يكن التناصّ مع القرآن والحديث كافياً، فغدت الأخلاق وحدها مرجعاً ومرتكزاً في التأويل. إذ لا يمكن فهم وصيّة ابنه: «لا تجعل بينك وبين الله قميصاً» بمنأى عن خُلُق الزهد الذي يُعدّ من أخلاق المريد ومن المقوّمات الأولى للطريق، ويقترن بالافتقار الحقيقيّ إلى الله. قال ابن عطاء: «إنّ الله ليحبّ العبد فيلبس الثوب الشهرة فلا ينظر إليه حتّى يضعه.»<sup>100</sup> وتّضح دلالة القميص أكثر في مقابل أقوال تشيد بلباس المرقعة مثلاً، منها قولهم: المرقعة لباس الرجال.<sup>101</sup>

خلاصة القول، إنّ أحلام المتصوّفة لا يمكن أن تُفهم بمنأى عن أخلاقهم، وقد كان لهذه الأخلاق أثرها على علم التعبير بدءاً من الخركوشي، إذ حقّقت انزياحاً دلاليّاً لعددٍ من رموز التعبير. وإنّ توسيع رقعة الدراسة لتطال كتب تعبير أخرى للمتصوّفة من شأنه أن يعنى نتائج البحث، وأن يوضح أكثر أثر الأخلاق في المنامات. لقد أدّى السياق الأخلاقيّ دوراً تكامليّاً مع سياقاتٍ أخرى في عمليّة تفكيك المنامات ومحاولة تأويلها، إلّا أنّه استغنى في المنام الأخير عن السياقات الأخرى، وكان وحده مرتكزاً أساساً لتلقّي المنام. وفي ضوء هذا يمكننا القول: إنّ أخلاق المتصوّفة قد أسدت خدمتين جليلتين لعلم التعبير عند المسلمين، أوّلاً: أوجدت له هويّةً متفردة من خلال الانزياح الدلاليّ ووسّعت الفجوة بينه وبين علم التعبير في الفكر اليونانيّ، وثانياً: خلقت له وظائف أخرى غير التكهّن بالمستقبل. فالمنامات التي عالجتها الورقة لم ترتكز على كشف مستقبل الرائي بقدر ما ارتكزت على إصلاح حاله في حاضره.

100. Al-Sirjānī, *Sufism, Black and White*, 109.

101. Al-Sirjānī, *Sufism, Black and White*, 106.

## المصادر والمراجع

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن عليّ. *زاد المسير في علم التفسير*. بيروت: دار الكتاب العربي، 2002.
- ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان الدارميّ البستيّ. *صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان*. تحقيق شعيب الأرنؤوط. بيروت: مؤسّسة الرسالة، 1993.
- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد الشيبانيّ. *مسند الإمام أحمد بن حنبل*. تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرين. بيروت: مؤسّسة الرسالة، 2001.
- ابن سيرين، أبو بكر محمد. *تفسير الأحلام الكبير أو منتخب الكلام في تفسير الأحلام*. بيروت: دار الفكر، 1990.
- ابن شاهين، خليل. *الإشارات في علم العبارات*. بيروت: دار الفكر، دون تاريخ.
- ابن العربيّ. *فصوص الحكم*. تحقيق أبو العلا عفيفي. بيروت: دار الكتاب العربيّ، دون تاريخ.
- ابن العماد الحنبليّ، عبد الحيّ بن أحمد. *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*. تحقيق عبد القادر ومحمود الأرنؤوط. دمشق، بيروت: دار ابن كثير، 1989.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. *كتاب تعبير الرؤيا*. تحقيق إبراهيم صالح. دمشق: دار البشائر، 2001.
- ابن منظور، محمد بن مكرم. *لسان العرب*. بيروت: دار صادر، دون تاريخ.
- أرطاميدورس، دلديانوس الإفسيّ. *كتاب تعبير الرؤيا*. تحقيق توفيق فهد. ترجمة حنين بن إسحاق. دمشق: المعهد الفرنسيّ للدراسات العربيّة، 1964.
- البخاريّ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. *صحيح البخاريّ*. دمشق: دار ابن كثير، 2002.
- بروكلمان، كارل. *تاريخ الأدب العربيّ*. ترجمة عبد الحلیم النجار. القاهرة: دار المعارف، 1959.
- البيضاويّ، أبو سعيد عبد الله بن عمر. *أنوار التنزيل وأسرار التأويل*. تحقيق محمد المرعشلي. بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، 1998.
- البيهقيّ، أبو بكر أحمد بن الحسين. *دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة*. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1984.
- الترمذيّ، أبو عيسى محمد بن عيسى. *الجامع الكبير*. تحقيق بشار عواد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلاميّ، 1990.
- الخركوشيّ، عبد الملك بن محمد. *البشارة والندارة في تعبير الرؤيا والمراقبة*. مخطوط المتحف البريطانيّ، مخطوطات شرفيّة 6262 (258 ورقة، القرن السابع الهجريّ)؛ برلين 4266 (290 ورقة، 848هـ).
- الخطيب البغداديّ، أبو بكر أحمد بن عليّ. *تاريخ بغداد*. تحقيق بشار معروف. بيروت: دار الغرب الإسلاميّ، 2001.
- خماش، نبال. *الأساطير والأحلام المؤسّسة للعقل الإسلاميّ*. بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 2013.
- الدينوريّ، أبو سعد نصر بن يعقوب. *الجامع الكبير في التعبير أو القادري في التعبير*. تحقيق فهمي سعد. بيروت: عالم الكتب، 2000.
- الذهبيّ، أبو عبد الله محمد بن أحمد. *سير أعلام النبلاء*. تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين. بيروت: مؤسّسة الرسالة، 1985.
- الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السريّ. *معاني القرآن وإعرابه*. تحقيق عبد الجليل شلي. بيروت: عالم الكتب، 1988.
- الزركليّ، خير الدين. *الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين*. بيروت: دار العلم للملايين، 2002.
- الزمخشريّ. *الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*. تحقيق خليل شيحا. بيروت: دار المعرفة، 2009.
- السبكيّ، تاج الدين عبد الوهاب بن عليّ. *طبقات الشافعيّة الكبرى*. تحقيق محمود الطناحيّ وعبد الفتاح الحلو. القاهرة: هجر للطباعة والنشر، 1413هـ.
- السلميّ، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين. *تاريخ الصوفيّة*. وبذيله *محن الصوفيّة*. تحقيق محمد الجادر. دمشق: دار نينوى، 2015.
- السيرجانيّ، أبو الحسن عليّ بن الحسن. *كتاب البياض والسواد من خصائص حكم العباد في نعت المرید والمراد*. تحقيق بلال الأرفه لي وندي صعب. بوسطن، ليدن: بريل، 2012.

- شيميل، آنا ماري. أحلام الخليفة: الأحلام وتعبيرها في الثقافة الإسلامية. ترجمة حسام الدين جمال بدر وآخرين. كولونيا: منشورات الجمال، 2005.
- الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف. ترجمة محمد السيد ورضا قطب. كولونيا، بغداد: منشورات الجمال، 2006.
- الصفدي، خليل بن أبيك. الوافي بالوفيات. تحقيق أحمد الأرنؤوط وتريكي مصطفى. بيروت: دار إحياء التراث، 2000.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. جامع البيان في تأويل القرآن. تحقيق أحمد شاكر. بيروت: مؤسسة الرسالة، 2000.
- الطبري، أبو خلف محمد بن عبد الملك. سلوة العارفين وأنس المشتاقين. تحقيق غيرهارد بوفرينغ وبلال الأرفه لي. بوسطن، لندن: بريل، 2013.
- العروسي، مصطفى. نتائج الأفكار القدسية في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية لشيخ الإسلام زكريا بن محمد الأنصاري (ت 629هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 2007.
- الفخر الرازي، محمد بن عمر. التفسير الكبير ومفاتيح الغيب. بيروت: دار الفكر، 1981.
- فهد، توفيق. الكهانة العربية قبل الإسلام. ترجمة حسن عودة ورندة بعث. بيروت: قدمس، 2007.
- القرطبي، محمد بن أحمد. الجامع لأحكام القرآن. تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. القاهرة: دار الكتب المصرية، 1964.
- القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن. الرسالة القشيرية. تحقيق عبد الحلیم محمود ومحمود بن الشريف. القاهرة: مؤسسة دار الشعب، 1989.
- كحالة، عمر. معجم المؤلفين. بيروت: دار إحياء التراث العربي، دون تاريخ.
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم. الرياض: دار طيبة، 2006.
- الوردی، علي. الأحلام بين العلم والعقيدة. بيروت: الوفاق، 2017.
- Arberry, A. J. "Al-Khargūshī." In *EP*, 4:1074.
- Charan, Iftikhar et al. "Cultural and Religious Perspective on the Sufi Shrines." *Journal of Religion and Health* 57 (2018): 1074–1094.
- Encyclopaedia of Islam* [EP]. Leiden: Brill, 1960–2002.
- Encyclopaedia of Islam* [EP]. Leiden: Brill, 2008–.
- Goldziher, Ignaz. "The Appearance of the Prophet in Dreams." *The Journal of The Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland* 33 (1912): 503–506.
- Green, Nile. *Sufism: A Global History*. Malden, Oxford: Wiley-Blackwell, 2012.
- Halm, H. "Al-Kūshayrī." In *EP*, 5:526.
- Karamustafa, Ahmet. *Sufism: The Formative Period*. Berkeley, Los Angeles: University of California Press, 2007.
- Katz, Jonathan. "Dreams and Their Interpretation in Sufi Thought." In *Dreams and Visions in Islamic Societies*. Edited by Özgen Felek and Alexander Knysh, 181–197. Albany: SUNY Press, 2012.
- Knysh, Alexander. *Islamic Mysticism: A Short History*. Leiden, Boston, Köln: Brill, 2000.
- . *Sufism: A New History of Islamic Mysticism*. Princeton: Princeton University Press, 2017.
- Lamoreaux, John. *The Early Muslim Tradition of Dream Interpretation*. Albany: SUNY Press, 2002.
- . "An Early Muslim Autobiographical Dream Narrative." In *Dreaming Across Boundaries: The Interpretation of Dreams in Islamic Lands*. Edited by Louise Marlow, 78–98. Cambridge, Massachusetts, London: Harvard University Press, 2008.
- Lecomte, G. "Ibn Ḳutayba." In *EP*, 3:844
- Librande, Leonard. "Ibn Abī l-Dunyā." In *EP*, online.

- Mavroudi, Maria. "Artemidorus of Ephesus." In *EP*<sup>3</sup>, online.
- Ohlander, Erik. "Behind the Veil of the Unseen." In *Dreams and Visions in Islamic Societies*. Edited by Özgen Felek and Alexander Knysh, 199-213. Albany: SUNY Press, 2012.
- Onoma, Ato Kwamena. "The Grave Preferences of Mourides in Senegal: Migration, Belonging, and Rootedness." *Africa Spectrum* 53, no.3 (2018): 65-88.
- Orfali, Bilal. "Al-Dīnawarī, Abū Sa'd Naṣr b. Ya'qūb." In *EP*<sup>3</sup>, online.
- Renard, John. *Historical Dictionary of Sufism*. Lanham: Scarecrow Press, 2005.
- al-Sīrjānī, Abū l-Ḥasan. *Sufism, Black and White: A Critical Edition of Kitāb al-Bayāḍ wa-l-Sawād*. Edited by Bilal Orfali and Nada Saab. Leiden, Boston: Brill, 2012.
- Sirriyeh, Elizabeth. *Dreams and Visions in the World of Islam: A History of Muslim Dreaming and Foreknowing*. London, New York: I. B. Tauris, 2015.
- Sourdel, D. "al-Ḳādir Bi'llāh." In *EP*<sup>2</sup>, 4:378.
- Strohmaier, Gotthard. "Ḥunayn b. Isḥāq." In *EP*<sup>3</sup>, online.
- Al-Sulamī, Abū 'Abd al-Raḥmān. *Early Sufi Women: Dhikr an-niswa al-muta'abbidāt al-ṣūfiyyāt*. Translated by Rkia Cornell. Louisville, KY: Fons Vitae, 1999.
- Sviri, Sara. "Dreaming Analyzed and Recorded: Dreams in the World of Medieval Islam." In *Dream Cultures: Explorations in the Comparative History of Dreaming*. Edited by David Shulman and Guy G. Stroumsa, 252-273. New York, Oxford: Oxford University Press, 1999.
- Walde, Christine. "Dream Interpretation in a Prosperous Age? Artemidorus, the Greek Interpreter of Dreams." In *Dream Cultures: Explorations in the Comparative History of Dreaming*. Edited by David Shulman and Guy G. Stroumsa, 121-142. New York, Oxford: Oxford University Press, 1999.